وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب**﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿**فمنهم**﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿**مهتد**﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء[1]، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿**ثم قفينا**﴾ أي: أتبعنا ﴿**على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم**﴾ خصّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿**وآتيناه الإنجيل**﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة**﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات.

ولهذا كان النصارى أليَن من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿**ورهبانية ابتدعوها**﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿**فما رعوها حق رعايتها**﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾.

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿**كفلين من رحمته**﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿**كفلين من رحمته**﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجرٌ على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ أي: يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات.

﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ فلا يستكثر[2] هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[وقوله] ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله**﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم[3] بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أنَّ المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونورٌ، ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿**أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد،
ولله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ ـ ٤﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير**

(١) في ب: طاعة رسله.

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم.

رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ۞ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته [إلى الله، وجادلته][1] إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما، ﴿إن الله سميع﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات.

﴿بصير﴾ يبصر دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها[2] على وجه العموم، فقال: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾. المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي»، أو غيرها من محارمه، أو: «أنت عليّ حرام»، وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهاراً» فقال: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم[3] أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: ﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾ أي: قولاً شنيعاً، ﴿وزوراً﴾ أي: كذباً.

﴿وإن الله لعفو غفور﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها[4] تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين ﴿فـ﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تحرير رقبة﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى[5]، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة[6] بالعمل.

﴿من قبل أن يتماسا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة.

﴿ذلكم﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم، ﴿توعظون به﴾ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظاهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة كف نفسه عنه، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

﴿فمن لم يجد﴾ رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو[لم] يجد ثمنها ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ ﴿فمن لم يستطع﴾ الصيام ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾ إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدّ بُرّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به، فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان[7] ويكمل وينمو.

﴿وتلك حدود الله﴾ التي تمنع من

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره.

(٣) في ب: يعلمون.

(٤) كذا في ب، وفي أ: أن.

(٥) في ب: آية القتال.

(٦) في ب: الضارة.

(٧) في ب: ويزداد به الإيمان.

الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللكافرين عذاب أليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسائهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميها[1] باسم محارمه، كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن[2] كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمحادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾

يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جميعاً﴾ فيقومون من أجدثهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر[3] والسرائر، والخبايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(١) في ب: ويدعوها.

(٢) في ب: إذا.

(٣) في ب: على الظواهر.

وقيام بحق الله ولعباده[1]، والتقوى، وهي [هنا]: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ أي: يسيئون الأدب معك في تحيتهم لك، ﴿ويقولون في أنفسهم﴾ أي: يسرون في أنفسهم[2] ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم]، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فبئس المصير﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً[3]، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ، قالوا: «السام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

﴿١٠﴾ ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى: ﴿إنما النجوى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك[4] عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: ليعتمدوا[5] عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه[6].

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ هذا تأديب[7] من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للمجالس[8] شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وإذا قيل انشزوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض،

﴿فانشزوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم * أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما

---

(١) في ب: بحق الله وحق عباده.

(٢) في ب: يسرون فيها.

(٣) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيراً.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٦) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه.

(٧) في ب: هذا أدب.

(٨) في ب: للفاسح.

تعملون﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقيها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده:] ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله[1].

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ ـ ١٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون[2] أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله[3]، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً ووقاية، ينقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدّ عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يُفتَّر عنهم ساعة ولا هُم يُنظرون، ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ فلا تدفع[4] عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و ﴿هم فيها خالدون﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يحلفون على

(١) في ب: حدود الشرع.
(٢) في ب: والحال.
(٣) كذا في ب، وفي أ: يسخطه.
(٤) في ب: أي لا تدفع.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة.

ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾** أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان[1] ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية[2].

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان[3] وراء ظهره، فإن هذا إيمان زَعْمِيٌّ لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله،

بحمد الله وعونه وتسديده،

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً

(١) في ب: إيمانه.

(٢) في ب: ولا وراءه.

(٣) في ب: لمن نبذ.

تفسير سورة الحشر
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

وسوّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبيّ [ابن سلول]: (أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان).

وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يحمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُيَيُّ بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله[1]، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصٍ[2]، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون **﴿أن يخرجوا﴾** من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها.

﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تُجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: **﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾** أي: من الأمر والباب، الذي لم[3] يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى **﴿قذف في قلوبهم الرعب﴾** وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبالٌ[4]، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه[5]، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: **﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾** وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾** أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

---

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عصيه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالاً عليه.

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ[1] لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد[2] العقل، وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه ﴿**ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب**﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك[3] إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره ﴿**وليخزي الفاسقين**﴾ حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير.

﴿**فـ**﴾ إنكم يا معشر المسلمين ﴿**ما أوجفتم**﴾ أي: أجلبتم وأسرعتم وحثثتم، ﴿**عليه من خيل ولا ركاب**﴾ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صَفْواً عَفْواً، ولهذا قال: ﴿**ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه[4] ممتنع، ولا يتعزز من دونه قويٌّ. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذي لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمته[5].

﴿**فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، في[6] قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام:

خمسٌ لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامة]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يُسوَّى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم[7]، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقونني في جاهلية ولا إسلام».

وخُمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخُمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

---

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.

(٢) في ب: يكمل العقل.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته.

(٦) في ب: وهي.

(٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقد على هجرهم قريش وعداوتهم.

المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كي لا يكون دولة﴾ أي: متداولة واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح مالا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم: الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزِق الإيثار فقد وُقِي شح نفسه ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقِيَ العبد شحَّ نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان[1] الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين[2].

وحَسْبُ من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتمّ بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

والأنصار ﴿يقولون﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين[1]، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نَفْيَ الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره[2]، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سبقونا بالإيمان﴾ دليل على المشاركة في الإيمان[3]، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالَّين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طَمُعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لئن أخرجوا﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لا يخرجون معهم﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم[4].

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصروهم﴾ على الفرض والتقدير[5] ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ أي: ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك[6]، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ أي: لا يثبتون لقتالكم[7] ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تحسبهم جميعاً﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم انتفاءهم بما ذكر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

---

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.
(٢) في ب: لقليله وكثيره.
(٣) في ب: المشاركة فيه.
(٤) في ب: بالوعد.
(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.
(٦) في ب: حملهم على ذلك.
(٧) في ب: على قتالكم.

كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الحظين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون]﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بدراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهما﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار خالدين فيها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ ـ ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم ـ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم[1] ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف[1] لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوىء الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢ ـ ٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه[2] فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله، فقراء مدبرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿المتكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارىء﴾ للمبروءات ﴿المصور﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

(١) كذا في ب وفي أ: وأقلها تكلفاً.

(٢) في ب: غيره.

تم تفسير سورة الحشر،
فلله الحمد على ذلك،
والمنة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١ ـ ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش[1] يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضُلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق[2]، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم ـ من أجله ـ من دياركم، فأيُّ دين، وأيُّ مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟!! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله[3]، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله[4]، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويبتغون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إن يثقفوكم﴾ أي: يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم

---

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

أعداء﴾ ظاهرين ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿وألسنتهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتم وقلتم: توالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أسوة حسنة﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبدا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حدّ، بل ذلك ﴿أبداً﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لأستغفرن لك و﴾ الحال أني لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون ملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وإليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك[1]، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمتعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك[2] وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة[3] الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، فـ ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتألموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

(١) في ب: ما يزلفنا إليك.

(٢) كذا في ب، وفي آ: فمن عزتك.

(٣) في ب: والمودة.

المقسطين﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة[1]، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله:] **﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾** أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، **﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾** أي: عاونوا غيرهم **﴿على إخراجكم﴾** نهاكم الله **﴿أن تولوهم﴾** بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتولٍّ للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار[2] ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ ـ ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، **﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾** فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها[3]، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، **﴿واسألوا ما أنفقتم﴾** أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم[4] إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم[5]، **﴿والله عليم حكيم﴾** فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة[6].

وقوله: **﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾** بأن ذهبن مرتدات **﴿فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾** كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق[7].

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

---

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق.

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير[1]، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن[2] يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن[3]، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء[4] الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطييباً لخواطرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، ومن رحمته إحسانه للبرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم[5]، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله:] ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر[6]، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ۞ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ۞ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذل جميع الخلق[7] له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما مدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما تنزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل ثليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليمٌ لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي [لهم] أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع[8] في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

---

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.
(٢) في ب: بل.
(٣) في ب: مع أزواجهن.
(٤) في ب: بدعوى.
(٥) في ب: وشركهم.
(٦) في ب: وشاهدوا.
(٧) في ب: الخلق له.
(٨) في ب: يحصل.

لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي:] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذونني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد[1] بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا[2] لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال[3] والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٦ ـ ٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، ومما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبحثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء[4]، يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يتناقضون الأنبياء أشد متناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أبْيَنَ من شمس النهار، يجعل ساحراً بيّناً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم[5] من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له ببراهينه وبيناته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، وليتصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردُّون بها الحق، وهي[6] لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة[7] نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون[8] به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عين

(١) في ب: والقيام.
(٢) في ب: ليس.
(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.
(٤) في ب: كسائر الأنبياء.
(٥) في ب: أبلغ.
(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.
(٧) في ب: وإظهار.
(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

الشمس بفيه[1] ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

﴿ودين الحق﴾ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل بعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد[2] فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه خاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾** هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله[3]، فلهذا قال: ﴿وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو[4] كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه ﴿خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المناقي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

وفي الآخرة الفوز[5] بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل

---

(١) في ب: ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد.

(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.

(٤) في ب: وإن كان.

(٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز.

عليين، يتراءآهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وحيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقرّ أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده[1]، وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها[2]، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بآلمها، وسرورها[3] بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿**وأخرى تحبونها**﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿**نصر من الله**﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿**وفتح قريب**﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد][4] فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إنّ في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[5].

ثم قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله**﴾ [أي.] بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته[6] تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده وناوأه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تعلُّمُ كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿**كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله**﴾ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً[7]: من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿**نحن أنصار الله**﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل**﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿**وكفرت طائفة**﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم**﴾ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم.

﴿**فأصبحوا ظاهرين**﴾ عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

---

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري ـ راوي الحديث ـ فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منهياً.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

تمت ولله الحمد[1]

تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ أي: يسبح لله وينقاد لأمره، ويتأتى ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢ ـ ٤﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلو عليهم آياته﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، وينهاهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن[2] وعلم السنة، المشتمل ذلك على علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين[3]، فلله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة، وقوله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن باشر[4] دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأسرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

﴿٥ ـ ٨﴾ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين * قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة، الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها[5]، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً

---

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٢) في ب: علم الكتاب.

(٣) في ب: وقادة المتقين.

(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

(٥) في ب: ويعملوا بها.

من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود[1]، الذين لم يعملوا بما في التوراة، التي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء لله: ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا أمر تعجيز، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم[2] إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون[3] منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩ ـ ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا الغدو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وذروا البيع﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكد الفروض.

﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، ﴿وتركوك قائماً﴾ تخطب الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿قل ما عند الله﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان[4] يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

---

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين[1] يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،
ولله الحمد والثناء[2]

تفسير سورة المنافقين[3] مدنية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها[4]، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا﴾** على وجه الكذب: **﴿نشهد إنك لرسول الله﴾** وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن **﴿الله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم، **﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، **﴿ذلك﴾** الذي زين لهم النفاق **﴿بـ﴾** سبب **﴿أنهم﴾** لا يثبتون على الإيمان.

بل **﴿آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾** بحيث لا يدخلها الخير أبداً، **﴿فهم لا يفقهون﴾** ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم، **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾** من رواتها ونضارتها، **﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾** أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح، شيء، ولهذا قال: **﴿كأنهم خشب مسندة﴾** لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، **﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾** وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم[5] يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء **﴿هم العدو﴾** على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، **﴿فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾** أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبينت أدلته واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء **﴿وإذا قيل﴾** لهؤلاء المنافقين **﴿تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾** عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و **﴿لووا رؤوسهم﴾** امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، **﴿ورأيتهم يصدون﴾** عن الحق بغضاً له **﴿وهم مستكبرون﴾** عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

---

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

(٢) في ب: يمن الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

(٣) كذا في النسختين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وريبها.

سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ فإنهم ـ بزعمهم ـ لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور[1]، ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾ فبيده الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم[2].

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء ـ يعني المهاجرين ـ إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»[3].

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه[4] هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال [تعالى:] ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩ ـ ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات[5]، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مما رزقناكم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء[6] مما رزقهم الله الذي يسره لهم[7] ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فأصدق﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ المحتوم لها ﴿والله

(١) في ب: بالحقائق.
(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.
(٣) في ب: سمّن كلبك.
(٤) في ب: ومن اتبعه.
(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.
(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.
(٧) في ب، مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.

خبير بما تعملون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،

ولله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١ ـ ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير * خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير * يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسداه من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خلق السماوات والأرض﴾ أي: أجرامهما، [وجميع] ما فيهما فأحسن خلقهما، ﴿بالحق﴾ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. ﴿وإليه المصير﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه[1]، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليماً بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥ ـ ٦﴾ ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتجتنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضين، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل[2] بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: ﴿ذلك﴾ النكال والوبال، الذي أحللناه بهم بأنهم ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: ﴿أبشر يهدوننا﴾ أي: فليس لهم فضل علينا، ولأي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها ﴿فكفروا﴾ بالله ﴿وتولوا﴾ عن طاعة الله، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، ﴿والله غني حميد﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وذلك على الله يسير﴾ فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت[3] على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

﴿٨﴾ ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(١) في ب: أولاكم.

(٢) في ب: رسلهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه[1]، وسماه الله نوراً، فإن النور[2] ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي[3]، **﴿والله بما تعملون خبير﴾** فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩ ـ ١٠﴾ ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويُرْفَعُ أقوامٌ إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: **﴿ذلك يوم التغابن﴾**.

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: **﴿ومن يؤمن بالله﴾** [أي:] إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، **﴿ويعمل صالحاً﴾** من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، **﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾** **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾** أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ ـ ١٣﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾** وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن[4] لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الشبات عند ورودها[5] والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب[6]، كما قال تعالى: **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾** في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من[7] الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله[8]، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله[9] في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله:] **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا**

---

(١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وبكتابه.

(٢) في ب: لأن النور.

(٣) في ب: النواهي.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين.

الرسول﴾ أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح. **﴿فإن توليتم﴾** [أي] عن طاعة الله وطاعة رسوله، **﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾** أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح وتقوم[1] به عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل، **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** أي: فليعتمدوا[2] عليه في كل أمر نابهم، وفيما يزيدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك[3] إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل[4].

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذا وصفه[5]، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي[6]، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: **﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾** لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

﴿١٦ ـ ١٨﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾ يأمر تعالى بتقواه، الشي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد[7] ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: **﴿واسمعوا﴾** أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له، **﴿وأطيعوا﴾** الله ورسوله في جميع

أموركم، **﴿وأنفقوا﴾** من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثمَّ آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها **﴿فأولئك هم المفلحون﴾** لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مُرضٍ لله

(١) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً فقوم.
(٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.
(٣) كذا في ب، وفي أ: لذلك.
(٤) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً.
(٥) في ب: هذه صفته.
(٦) في ب: التي فيها محذور شرعي.
(٧) في ب: وقيد.

تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغَّب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يضاعفه لكم﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يغفر لكم﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

﴿والله شكور حليم﴾ حليم لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء[1] بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ وللمؤمنين:

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ أي: أردتم طلاقهن ﴿فـ﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طلقوهن لعدتهن﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بَعْدُ، [وحقها في النفقة ونحوها] فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج][2]، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها. وقوله: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، فـ ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن[3] الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿ولا يخرجن﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن[4] المسكن يجب على الزوج للزوجة[5]، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها[6]، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

(١) في ب: وأنواع التكاليف.
(٢) زيادة من هامش: ب.
(٣) في ب: بل تلزم بيتها.
(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.
(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه.
(٦) في ب: عليها.

للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، ﴿وتلك حدود الله﴾ [أي:] التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفراق. ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة]، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذوي عدل منكم﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وأقيموا﴾ أيها الشهداء ﴿الشهادة لله﴾ أي: ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده[1]، ولا تراعوا بها قريباً لقرابته، ولا صاحباً لمحبته، ﴿ذلكم﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك[2] أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن[3] من اتقاه في الطلاق وغيره، فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطيء فيه[4]، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح[5]، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استدراكها[6] والخروج منها.

وقوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فهو حسبه﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن

(١) في ب: وجه الله تعالى.
(٢) في ب: فإن الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.
(٣) في ب: ووعد من.
(٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.
(٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.
(٦) في ب: لا يتمكن من استداركها.

ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرْجَ رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللائي لم يحضن﴾ أي: الصغار اللائي لم يأتهن الحيض بَعْدُ، واليائسات[1] اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. [وقوله:] ﴿وأولات الأحمال أجلهن﴾ أي: عدتهن ﴿أن يضعن حملهن﴾ أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها، ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من اتقى الله تعالى، يسّر له الأمور، وسهّل عليه كل عسير. ﴿ذلك﴾ [أي:] الحكم الذي بيّنه الله لكم ﴿أمر الله أنزله إليكم﴾ لتمتثلوا عليه، [وتأتمروا] وتقوموا به وتعظموه.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان[2] بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وُجد الزوج وعسره، ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، ﴿وإن كن﴾ أي: المطلقات ﴿أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت باتناً، ولها وحملها إن كانت رجعية، وتنتهي النفقة حتى يضعن حملهن[3]، فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، ﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه[4] من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما[5] ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير[6].

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة[7]، وينصح على ذلك.

﴿وإن تعاسرتم﴾ بأن لم تتفقوا[8] على إرضاعها لولدها، فلترضع[9] له أخرى غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه،

---

(١) في ب: أو اليائسات.
(٢) في ب: إسكانهن.
(٣) في ب: إلى وضع الحمل.
(٤) في ب: فيها.
(٥) في ب: بينهما.
(٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.
(٧) في ب: والمنازعة.
(٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.
(٩) في ب: فسترضع له أخرى.

تفسير سورة التحريم
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريته «مارية» أو شُرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يا أيها النبي﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم ينفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه[1]، عيَّن تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن[2] أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء.

﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيق عليه ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ من الرزق.

﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾.

﴿٨ ـ ١١﴾ ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً * فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسل أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم[3] شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به]، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ من الواجبات والمستحبات.

﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ [أي:] ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿١٢﴾ ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون

[تم تفسيرها والحمد لله]

(١) في ب: لا خروج له منه.

(٢) في ب: يتمكن.

(٣) في ب: تغن عنهم.

﴿تبتغي﴾ بذلك التحريم ﴿مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾[1] أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة[2] بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وهو العليم الحكيم﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله:] ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسرّ لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرّفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرماً منه ﷺ وحلماً، فـ ﴿قالت﴾ له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله:] ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما[3] قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا[4] على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه[5]، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول[6]، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق[7] عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى[8]، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تائبات﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ فيما يحب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

---

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا عامّ في جميع أيمان المؤمنين.
(٢) في ب: وما به تكفر.
(٣) في ب: أن قلوبكما.
(٤) في ب: تعاونا.
(٥) في ب: أنصاره.
(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول.
(٧) في ب: لا يضيق.
(٨) في ب: سيجد.

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: يا من منَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

ـ ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل[1] تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم[2] انتهارهم، يفزعون بأصواتهم، ويخيفون[3] بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون[4] فيهم أمر الله، الذي حتَّم عليهم العذاب[5] وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي:] فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي تعطى المنافقين، ويسألون الله، أن يتمم[6] لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما[7] معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه[8] والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة[9]، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكأن في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا﴾ أي: المرأتان ﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فخانتاهما﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

(١) في ب: وفيمن يدخل.
(٢) في ب: شديد.
(٣) في ب: ويزعجون.
(٤) في ب: وينفذون.
(٥) في ب: بالعذاب.
(٦) في ب: يتم.
(٧) في ب: بما.
(٨) في ب: إلا وجه الله.
(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجة والموعظة الحسنة.

بغياً، ﴿فلم يغتيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن امرأتيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله:] ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته[1] بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تمت ولله الحمد

تفسير سورة الملك
[وهي] مكية

﴿١ ـ ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن[2] الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: تفاوت واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

﴿٥ ـ ١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير * وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

(١) في ب: أي المداومين على طاعة الله.

(٢) في ب: وذلك أن.

للسماء [وجالا]، ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا يتافى إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وجعلناها﴾ أي: المصابيح ﴿رجوماً للشياطين﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿وأعتدنا لهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب السعير﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال:

﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ الذي يهان به أهله[1] غاية الهوان، ﴿إذا ألقوا فيها﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾ أي: صوتاً عالياً فظيعاً، ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟!! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها، ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأي عناد وتكبُّر وظلم يشبه هذا؟

﴿وقالوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم - في الإيمان - بحسب ما منّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

﴿١١﴾ ﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾ أي: بُعْداً لهم وخسارة وشقاء.

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

﴿١٢﴾ ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار[2]، فقال: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به[3]، ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب

الجحيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعده الله لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المتواصلات] والمشتهيات، والقصور [والمنازل] العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله على أهل الجنان[4].

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟!

ثم قال - مستدلاً بدليل عقلي على علمه -: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا [والخفايا والغيوب]، وهو الذي ﴿يعلم السر

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.

(٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء.

(٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.

وأخفى﴾ ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده وليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿١٦ ـ ١٨﴾ ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العالي على خلقه.

﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم[1].

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمتكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان[2] أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن[3] في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتوٍ ونفور﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة، على أيّ عدوٍّ كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسَفَهٌ.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا ﴿في عتو﴾ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿ونفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أيُّ الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ ـ ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو

(١) في ب: حتى تهلكوا وتتلفوا.

(٢) في ب: الأمد.

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.

﴿الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبين﴾ يقول تعالى ـ مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة ـ: ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مُظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن[1]، وأكمل القوى الجسمانية، ولكنه[2] مع هذا الإنعام ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي: بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿ويقولون﴾ تكذيباً:

﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا[3] بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد، فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٢٧ ـ ٣٠﴾ ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون * قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين * قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زلفة﴾ أي: قريباً، ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلق أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، وربخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول ﷺ، [الذين] يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم[4] وإن حصلت لكم أمانيكم[5]، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحقيتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذاً، تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد، ولا يجدي عنكم شيئاً.

ومن قولهم، إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿آمنا به وعليه توكلنا﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.

ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ، فقال: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي: غائراً ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تمت ولله الحمد[6]

تفسير سورة ن وهي مكية

﴿١ ـ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم * فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على

(١) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن.

(٢) في ب: ولكنكم.

(٣) في ب: أن يخبروهم.

(٤) في ب: إنكم.

(٥) في ب: أمنيتكم.

(٦) في ب: تم تفسير سورة الملك والحمد لله.

براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون[1]، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿**وإن لك لأجراً**﴾ أي: عظيماً، كما يفيده التنكير، ﴿**غير ممنون**﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين [عائشة ـ رضي الله عنها ـ] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، و [الآيات] الحاثّات على الخلق العظيم[2]، فكان له منها أكملها وأجلّها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بِشْرَهُ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿**فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون**﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس][3] للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿**هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨ ـ ١٦﴾ ﴿**فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون * ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * سنسمه على الخرطوم**﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**فلا تطع المكذبين**﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالقطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿**ودوا**﴾ أي: المشركون ﴿**لو تدهن**﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿**فيدهنون**﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه، ﴿**ولا تطع كل حلاف**﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿**مهين**﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة[4] في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿**هماز**﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم[5]، بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿**مشاء بنميم**﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿**مناع للخير**﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿**معتد**﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض[6] ﴿**أثيم**﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿**عتل بعد ذلك**﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿**زنيم**﴾ أي: دَعِيٌّ، ليس له أصل و [لا] مادة

(١) في ب: عنه ذلك.
(٢) في ب: على كل خلق جميل.
(٣) زيادة من هامش ب.
(٤) في ب: ليس له رغبة.
(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.
(٦) في ب: يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنمة أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطومه[1] في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ ـ ٣٣﴾ ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون[2]، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثَمَّ مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي: كالليل المظلم. ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع المؤلم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا﴾ قاصدين له[3] ﴿وهم يتخافتون﴾ فيما بينهم، ولكن يمنع حق الله، ويقولون: ﴿لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وغدوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿على حرد قادرين﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿فلما رأوها﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قالوا﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿إنا لضالون﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتم فقلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي: متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سُؤْلَه.

قال تعالى مبيناً[4] ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾ [أي:] الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب[5].

﴿٣٤ ـ ٤١﴾ ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم * أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم * أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين[1] القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكمٌ باطل، ورأيه[2] فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها[3].

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ ـ ٥٢﴾ ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين * وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، فـ ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ[4].

﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يثقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يُتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتمٌ مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ

---

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

بالعراء﴾ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وهو مذموم﴾ ولكن الله[1] تغمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتباه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعله من الصالحين﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه[2] بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، وخبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كرره من قوله: ﴿الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة﴾ فإن لها شأناً عظيماً، وهولاً جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل][3]، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما[4] أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر[5] به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل[6]: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يُرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أي:] عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ أي: نحساً وشراً فظيعاً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ أي: هلكى موتى، ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿٩ ـ ١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية * إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذنٌ واعية﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البينات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾ أي: بالفعلة الطاغية، وهي[7] الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش[8] والفسوق، ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب[9] الرسول الذي أرسله الله إليهم، فأخذ الله الجميع ﴿أخذة رابية﴾ أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنّ الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم

---

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وبما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لنجعلها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكّركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجّى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكّر بأصله.

وقوله: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله[1].

﴿١٣ ـ ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجّى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، وتسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق وتتغير ألونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

﴿والملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم[2]، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عُراةً غُرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ ـ ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن ـ هنا ـ [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهيّ، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة ـ وترك الأعمال السيئة[3] ـ من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر لله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتنعيمها، وأهلاً لسعادتها.

﴿٢٥ ـ ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم

---

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إبهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك.. في الطبعات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون﴾ هؤلاء أهل الشقاء، يُعْطَوْنَ كتب أعمالهم السيئة[1] بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً، وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزي[2]: ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ لأنه يبشر بدخول النار، والخسارة الأبدية، ﴿ولم أدر ما حسابيه﴾ أي: ليتني كنت نسياً منسياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله[3]، فيقول: ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿هلك عني سلطانيه﴾ أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العُدد الخطيرة[4]، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿خذوه فغلوه﴾ أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي: قلبوه على جمرها ولهبها، ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فاسلكوه﴾ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا الحل: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاؤوا به من الحق، ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، ﴿فليس له اليوم ها هنا﴾ أي: يوم القيامة ﴿حميم﴾ أي: قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾.

وليس له طعامٌ إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إلا الخاطئون﴾ الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم[5]، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿٣٨ ـ ٥٢﴾ ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾

أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل[6] في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول

(١) في ب: كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة.
(٢) في ب: الحزن.
(٣) في ب: ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب.
(٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العِدَدُ.
(٥) في ب: وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم.
(٦) في ب: بل دخل.

البشر[1]، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو تقول عليه[2] وافترى ﴿بعض الأقاويل﴾ الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾ وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع، مات[3] منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوّل على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(١) في ب: قولاً للبشر.
(٢) في ب: علينا.
(٣) في ب: هلك.

﴿وإنه﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لتذكرة للمتقين﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين، ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة، ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

ثم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.

(٤) في ب: المكذبين.
(٥) في ب: وإما أن يذخر لهم في الآخرة.

تفسير سورة سأل سائل وهي مكية

﴿١ ـ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾ يقول تعالى مبيناً جهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتاً وتعجيزاً:

﴿سأل سائل﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بعذاب واقع * للكافرين﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿ليس له دافع * من الله﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين[4]، فقال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة[5]، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها[6] على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء

(٦) في ب: بما جعلها.

إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحيِّي ربها وتُسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح[1]، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه[2]، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظهرُ لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليقة[3].

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿**فاصبر صبراً جميلاً**﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجّر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، ﴿**إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً**﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨ ـ ١٨﴾ ﴿**يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى**﴾

أي: ﴿**يوم**﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿**تكون السماء كالمهل**﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿٩﴾ ﴿**وتكون الجبال كالعهن**﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد

الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

ليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿**ولا يسأل حميم حميما * يبصرونهم**﴾ أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه، ﴿**يود المجرم**﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿**لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته**﴾ أي: زوجته ﴿**وأخيه * وفصيلته**﴾ أي: قرابته ﴿**التي تؤويه**﴾ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك.

﴿**كلا**﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون[4]، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

---

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحسانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.

بيتي مؤمناً﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات، ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحي إلي [وهي] مكية

﴿١ ـ ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس ﴿أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً[1] لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾ أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرشد﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ تعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال[2] في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾ أي: قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله، وإلا فلو كان رزيناً معظماً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا﴾ أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة[3] والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنا بهم الظن، وظنناهم[4] لا يتجرؤون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه[5]، وانقدنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس[6] يعارض الهدى.

﴿٦﴾ ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع[7]، فزاد الإنس الجن رهقا أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو[8] أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وأنا لمسنا السماء﴾ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً﴾ عن الوصول إلى أرجائها [والدنو منها]، ﴿وشهبا﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء.

﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً

---

(١) في ب: منذرين لقومهم.
(٢) في ب: والجلال.
(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.
(٤) في ب: وحسبناهم.
(٥) في ب: سلكنا طريقه.
(٦) في ب: من الخلق.
(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزاع، ويعبدونهم.
(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.